١٦٥.٩

مجله	الازهر
تاریخ نشر	ج ٢ ١٤٠٢
شماره	
شماره مسلسل	
محل نشر	مصر
زبان	عربی
نویسنده	حامد ابو سر
تعداد صفحات	٨٢٠-٨٧١
موضوع سرفصلها	حکمة الخلق والعبادة فی ضوء القرآن الکریم
کیفیت	
ملاحظات	

حكمة الخلق والعبادة

١٤-٢٤

لماذا خلقنا ؟ سؤال يسأله الموحدون والملحدون .

فأما الموحدون فيسألون هذا السؤال لأن له جوابا يوضح حكمة الخلق ، ولابد للخلق من حكمة عالية . وعلى هم تجد فى الجواب اطمئنانا ، وتزدد به ايمانا .

وأما الملحدون فيسألون هذا السؤال ليثيروا جدلا حول الجواب الذى جاء فى قول الله تعالى «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» (سورة الذاريات — ٥٦) . والجدل الذى يثيره الملحدون بعد هذا الجواب هو سؤال آخر : ولماذا نعبد الله ؟

والجواب على هذا السؤال يمكن ايجازه فى جملة واحدة ، ولكن الآيات القرآنية التى ترد على هؤلاء المرتابين كثيرة ، وقد تضمنت من البراهين العقلية الحاسمة المفحمة ما فيه اقناع لمن شاء أن يؤمن ، مما يدعونا الى شىء من الشرح والاسهاب .

ان العابد الحقيقى يحب معبوده حبا يرقى الى مرتبة من التقديس والتنزيه للمعبود هى العبادة . ولا يقبل عقلا أن يحب الاله ويعبد كرها ، وانما يحب ويعبد عن اعتقاد وايمان ويقين بأن المعبود له من الوصف والكمال المطلق ما يجب العابد فيه أشد الحب «وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ» (البقرة — ١٦٥) .

والعبادات عموما هى الطاعات والادعية ، ولكل عبادة حكمتها التى شرعت لاجلها ، وكان فى ادائها النفع ، وفى تركها الضرر .

ولا شك أن المؤمن يجد راحة وطمأنينة وأمنا وهو يسلم الامر لربه ، لانه يغنيه عن سواه «أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ» (سورة الزمر ٣٦) .

الخالق الرازق المحيى المميت ، خلق الانسان ورزقه وأحياه وأماته ، ثم هو سبحانه يبعث من فى القبور ويجازيهم فى الآخرة على ماعملوا فى الدنيا «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ» (المؤمنون — ١١٥) .

فالله سبحانه وتعالى ليس محتاجا الى عبادة الخلق اياه ، ولكن المخلوق محتاج الى

فى ضوء القرآن الكريم

للأستاذ حامد بدر

عبادة ربه .

واذا كان الله سبحانه يأمرنا بعبادته فلانه وحده هو المستحق للعبادة لا سواه ، وبيده الامر كله ، ولانه سبحانه لم يخلق الجن والانس ليضيعهم أو ليتركهم فى تيه ، وانما خلقهم ليلوذوا به ويلتجئوا اليه ويطمئنوا الى أنهم فى رعاية دونها كل رعاية ، وفى عناية دونها كل عناية ، وفى رحمة دونها كل رحمة . رعاية الله ، وعناية الله ، ورحمة الله .

وحسبنا أن الله سبحانه هو رب الخلق جميعا ، وهو رب الارباب ، وملك الملوك وولى الاولياء . فاذا كان أولو الامر منا يلون بعض الأمور الدنيوية فان الله سبحانه يلى كل أمر بقدرته وهو ولى المؤمنين وهاديهم «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ» (البقرة — ٢٥٧) .

وفى قوله تعالى «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» اشعار للجن والانس بأنهم فى أمان فليفرحوا بهذه العبادة التى تنظم حياتهم وتنظفها من الاثم والضلال والضياع .

ومما يقوله بعض ذوى الافهام المريضة والملاحدة : ان الله الذى لم يخلق الجن والانس الا ليعبدوه انما خلقهم ليسخرهم لعبادته ، ويتساءلون : وما الحكمة فى ذلك ؟

ونسوا أن عبادة الله تشريف من المعبود لعباده وأنه لم يكلفهم عبثا ولا شططا ولا عنتا ولا مشقة . كل العبادات تنظيم وتنظيف ، فتحن المسلمين انما نعبد الله وحده لنتحرر من اللجوء الى سواه ، فلا استعباد من مخلوق لمخلوق ، انما المعبود بحق هو الله الذى لا اله الا هو ، وهو سبحانه الكفيل بالرزق وبالموت وبالحياة . فلله وحده العبادة ، ومنه وحده العون والهداية «إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ» (الفاتحة ٥ و ٦) .

لم يسخر الله الخلق للعبادة ، بل ادخلهم بالعبادة فى رحمته ورعايته ، وسخر لهم ما فى

الارض جميعا هو آية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون » (يس ٣٣ و٣٤ و٣٥) .

« أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون . وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون . ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون » (يس ٧١ و٧٢ و٧٣)

وقد يقول قائل : اننا نعمل لنعيش ، ومن العمل نرتزق - ونقول له : ان الله أمرنا بالعمل والسعي للكسب ، ولكنه تكفل بالرزق . فالانسان مخلوق من العدم بأمر الله وقدرته ، والنبات يخرج من الارض بأمر الله وقدرته ، والماء ينزل من السماء بأمر الله وقدرته « أفرأيتم ما تمنون . أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون . نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين . على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون . أفرأيتم ما تحرثون . أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون . إنا لمغرمون . بل نحن محرومون . أفرأيتم الماء الذي تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون . أفرأيتم النار التي تورون . أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون » الواقعة (الآيات من ٥٨ الى ٧٢) .

والارزاق تتفاوت من غير ربط بين الرزق والعمل كما وكيفا بأمر الله تعالى وقدرته « إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر » (الاسراء ٣٠) .

اذا علمنا ذلك ، وعلمنا أن العبادة لا تكون صحيحة الا للمعبود بحق ، وأن المعبود بحق هو الاله الواحد القادر الخالق الرازق ذو الجلال والكمال .. تأكد لنا أن المعبود كفيل لمن خلقهم لعبادته بأن يحميهم من الرق والعبودية لغيره ، وأن من يعبد الله حق العبادة يشعر بالسيادة والكرامة والعزة ، ويبرأ من الذل والخضوع لأحد سوى الله « أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا » (النساء ١٣٩) .

« إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (الاحقاف ١٣) .

لم يخلق الله تعالى الانس والجن ليعملوا عملا فوق طاقتهم . وانما خلقهم ليعبدوه العبادة التي فيها صلاح لهم ، فان الدين يسر لا مشقة فيه ، والرزق مكفول بأمر الله وقدرته فليس بمهارة المخلوق ينزل الماء من السماء ، وينزل اللبن من ضروع الانعام . وليس بمهارة المخلوق يخرج النبات من الارض وتثمر الاشجار . وليس بمهارة المخلوق تضيء الشمس ويسطع نور القمر . وليس العمل وحده الكفيل بالرزق وان كان سببا ظاهرا

وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون

صدق الله العظيم

اقتضته حكمة الله لتعمير الارض ، وليجد الانسان لذة في أن يأكل من عمل يده ، ويشعر بثمرة كدحه وبقيمته المحدودة في هذه الحياة المحدودة ، وليعلم أنه مجازى في حياة الخلود على ما يعمل من الصالحات في الحياة الدنيا ، وليشعر الناس على اختلاف طبقاتهم بأن لكل قيمته في المجتمع الذي يعيش فيه ، وأن بعضهم لبعض معين ، لا تستغني فئة عن فئة مهما كبر الفرق الاجتماعي بينهما .

ولا ريب في أن الخالق القادر غير محتاج الى المخلوقين وأنه وحده هو الرزاق ذو القوة المتين .

وما دمنا نؤمن بأن الله غني عن العالمين فاننا لا نشك في أن العبادة لله توحيد ، وأن العبادة بالنسبة الى الخلق حماية لهم وتحصين وتشريف . واذا كان الخالق سبحانه لم يخلق الجن والانس الا ليعبدوه فذلك لان العبادة تعود بالنفع على العباد لا على المعبود . فكأن الله تعالى يقول : لم أخلق الجن والانس لأمر شاق عليهم ، ولا لأحملهم هم العيش والرزق ، وانما خلقتهم ليعبدوني ، خلقتهم ليدعوني فأستجيب لهم . وأما الرزق فما أريده منهم ولا أحتاج اليه « ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين » (الذاريات ٥٧ و٥٨) .

وحسبنا أن الاسلام يأخذ بيد المسلم ويهديه السبيل . واذا كان الطريق لا يخلو من العوائق فان الاسلام لا يتركها تسد الطريق ، فهو بالجهاد وبالنصيحة ، وبالامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبكل الوسائل المشروعة يقتحم الصخور والعقبات ، وينظف الطريق منها .. ثم يواصل السير بالمسلم الى الغاية التي فيها النجاة . والاسلام بمواصلة السير بالمسلم في الطريق بعد تنظيفه يهيىء له العمل الصالح المنظم ، وهو شامل لعمل الدنيا والآخرة . فأما العمل للدنيا فهو السعي لكسب الرزق وتعمير الكون . وأما العمل للآخرة فهو - بعد الايمان وسلامة الاعتقاد - أداء العبادات .

واذا كانت الاعمال المنظمة المحكومة بالعقل هي من أسباب الرزق ووسائل العمران ، فليس بالعمل وحده يحصل المخلوق على رزقه ، ولكن بقدرة الله الذي وهب المخلوق قدرة على العمل وتوفيقا فيه . فلا شك في أن قدرة الله هي التي تمدنا بالقدرة على العمل ، وهي التي تأتي بالنتائج الطيبة للعمل .

وقد تنتج الوسائل الظاهرة غير ما هو منتظر كما يحصل عندما تصاب الزروع بآفة من السماء لا يستطيع المخلوق ردها مهما بذل من جهد .

ولكي لا يعطل الانسان قواه أمره الله تعالى بالعمل للدنيا والآخرة ، وكلاهما مطلوب ، بل كلاهما عبادة .

وصدق الشاعر الذى قال :

إذا لم يكن عون من الله للفتى
فأول ما يجنى عليه اجتهاده

ولهذا دخل السعى لكسب الرزق فى مفهوم العبادة .

ومن الناس الكادحون الذين لا يكادون يستريحون من العمل المتواصل وهم قانعون بالقليل من الرزق ، ومنهم المترفون الذين لا يكادون يتحركون الا ليغمسوا فى الملهو والملذات .. وهذا المشهد ظاهر ومتكرر فى كل زمان ومكان : العاملون القانعون بالشظف ، واللاهون اللاعبون المترغون فى الترف وكثيرا ما يكون المال الكثير فتنة ونقمة كما يقول الله تعالى « كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ » (العلق — ٦ و ٧) . وكما يقول سبحانه « وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ » (الشورى — ٢٧) وان رزقا قليلا مع العمل الصالح خير من ثراء عريض فيه مخنة وابتلاء .

فقول الله تعالى « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » أى ما خلقتهم الا ليعملوا عملا جعلته سببا لصلاحهم فى الدنيا ، وعملا يثابون عليه فى الآخرة .. ما خلقتهم الا ليطيعونى فيسعدوا فى الداريين .

أمرنا الله بالسعى والعمل « وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ » (النجم — ٣٩ و ٤٠ و ٤١) .

« وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ » (التوبة — ١٠٥) .

والله وحده هو الذى يهب الرزق ، ويبسط ويقدر .

« أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ، وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ، وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ » (الزخرف ٣٢ و ٣٣ و ٣٤ و ٣٥) .

وهكذا نرى أن تفاوت الرزق لا يرتبط بتفاوت العمل كقاعدة أو قانون .

وخلاصة القول : سؤالان ، وجوابان

أما السؤال الأول فهو : لماذا خلقنا الله ؟

والجواب : خلقنا الله لنعبده .

وأما السؤال الثانى فهو : ولماذا نعبد الله ؟

والجواب : نعبد الله لنسعد السعادة التى لا نهاية لها .

فالعبادة بالنسبة لخلق الجن والانس غاية ، وهى بالنسبة لسعادة الجن والانس وسيلة .

فغاية الخلق هى لله عبادة .. وغاية العبادة هى للمخلوق سعادة .

حامد بدر